الثورة المقبلة : اجتماعية اقتصادية

تنشأ عن اتساع الهوة بين التقدم العلمي والارتقاء الاجتماعي

خاصة للمقتطف بقلم المستر فيليب سنودن

وزير مالية بريطانيا في وزارة العمال

هل يزيد رغد العيش ورخاء الناس بازدياد المكتشفات العلمية وتكاثر المستنبطات العجيبة واتقان الوسائل الصناعية على اختلافها ؟

ان نظرة عجلى الى دور الصناعة تكفي لان تقنع الناظر بان السيطرة على قوى الطبيعة واستخدامها في الآلات تخفف من عبء العمل الشاق عن كاهل الانسان وترفع مستوى معيشته . فاذا ذهب احد المفكرين مرتاباً في فائدة هذه المكتشفات والمستنبطات متسائلا فيما بينه وبين نفسه « هل يستفيد الصراف شيئاً ما من المكتشفات والمستنبطات التي ينتظر تحقيقها في قرن من الزمان » حسبهُ الناس متهتاً ليس لهُ مسوغ فيما يذهب اليه

من الاقوال المأثورة عن الفيلسوف جون ستيورت مل قولهُ « اني ارتاب اذا كانت كل الآلات الصناعية قد خففت عبء العمل اليومي عن كاهل عامل واحد ». فاذا حذفنا ما في هذه العبارة من المبالغة المقصودة وجدنا فيه نصيباً كبيراً من الحقيقة

لقد زادت قوة الانتاج في كثير من الصناعات نحو خمسمائة ضعف في ١٥٠ سنة بادخال الآلات البخارية والكهربائية الى العامل . فاذا حسبنا ان مائة عامل كانوا يستطيعون من مائة وخمسين سنة ان يصنعوا مقدار كذا من صنف ما في اسبوع اصبحوا الآن يستطيعون ان يصنعوا خمسمائة ضعف ذلك المقدار في الوقت عينهِ ولكن مساعدة الآلات . ومع ذلك لا نرى نقصاً في ساعات العمل يوازي هذا التقدم في سرعة الانتاج ولا زيادة في اجور العمال تتناسب معهُ . على ان الانصاف يقضي علينا بان نقول ان الثورة الصناعية زادت الثروة العالمية فمهدت السبيل لسكان الارض المتزايدين عاماً بعد عام ان يعيشوا في مستوى من الرخاء اعلى من مستوى اسلافهم . واظهر الصفات التي يتصف بها تقدم علمي ميكانيكي كالتقدم الذي شهدناهُ منذ اواسط القرن الماضي صفتان : الاولى — تجمع الثروة في ايدي افراد قلائل من سكان البلدان الصناعية . والثانية — زيادة المشتغلين بأعمال غير منتجة . لذلك يتعذر على اصحاب الصناعات ان يمنحوا العمال المنتجين ما يستحقونهُ من الاجور

ولا ريب في ان التقدم العلمي والصناعي افاد فائدة غير مباشرة جماعات السكان الذين لم يشتركوا في تحقيقه كعمال . واشهر هذه الفوائد ارتقاء طرق المواصلات ورخصها واعدد وسائل التنور والمطالعة والتهذيب ورخص السيارات واتقان المخاطبات اللاسلكية وما اليها

والسبب في ان التقدم العلمي والصناعي لا يظهر لهُ اثر في رخاء الجمهور وهنائه هو ان بلدان الارض لم تنتظم بعدُ انتظاماً يمكنها من استهلاك كل ما تقذف به المصانع الى الاسواق . لذلك تكون النتيجة الاولى التي تنجم عن استنباط وسيلة ميكانيكية جديدة لترقية الصناعة ان يستغني عن عدد من العمال لان اصحاب الصناعة اذا احتفظوا بجميع العمال واستخدموهم في ادارة الآلات الجديدة زاد ما تنتجهُ المعامل عن حاجة الاسواق اليهِ . لذلك يعمد اصحاب الصناعات الى الاستغناء عن بعض عمالهم لكي يحفظوا ما ينتجونهُ ضمن نطاق محدود لئلا يكثر المعروض وتهبط الاسعار

فاذا ينتظر ان يحدث اذا استمرَّ التقدم العلمي والصناعي سائراً سيراً حثيثاً الى الامام من غير ان يصحبهُ تقدم في مقدرة البلدان على استهلاك الانتاج الزائد الذي تمهد لهُ الوسائل الصناعية الجديدة سبيل الزيادة والسرعة ؟ ان مقدرة البلدان على استهلاك البضائع المختلفة يتوقف على مقدرة الطبقة المروية بطبقة العمال على الشراء . فاذا لم تزد مقدرتهم على الشراء لم يتسع نطاق الاسواق المختلفة لاستهلاك ما تنتجهُ المصانع وصرنا حينئذٍ نخشى ثورة صناعية اخرى . وكل الدلائل تدلُّ على اننا قريبون جدًّا من انقلاب خطير الشأن في وسائل الصناعة العلمية . اذ يظهر لي اننا على عتبة عصر جديد تستعمل فيهِ العلوم الكيماوية في الصناعة فتحدث ثورة أعظم اثراً وابعد مدى من الثورة الصناعية التي احدثها استنباط الآلة البخارية . وكيف اجلنا الطرف نجد ان العلوم مطردة التقدم لان كل اكتشاف جديد يثير العلماء على البحث والاستقصاء ويفضي الى اكتشافات كثيرة

وقد يكون في امكان الكيماويين ان يزيدوا خصب الارض في مدى قرن واحد زيادة تجعل الناس في غنى عن اربعة اخماس الاراضي المزروعة الآن . فيقضي على كثير من المواد الخام المستعملة الآن في الصناعة وتحلّ محلها مواد مركبة تركيباً كيماويًّا . ان تقدماً في هذه الناحية من نواحي العمران يقلب رأساً على عقب توزيع العمل بين الناس وتعود الزراعة لا تحسب الركن الاساسي في ثروة الامم

تجيء الثورات احياناً فجأة كما جاءت الثورة الصناعية منذ ١٥٠ سنة وفي بعض الاحيان تأتي ببطء كأنها تنتظر تضافر العوامل التي تمهد لها السبيل . فهل في العمران الحاضر عوامل تهيأ وتضافر لاحداث ثورة ما ؟

المستر فيليب سنودن

وزير مالية بريطانيا في وزارة العمال ومن أشهر الكتّاب الاقتصاديين المعاصرين

وهو هذه المرة مؤتمر ملادس وزير المالية الرسمية

مقتطف أيار ١٩٢٩

إمام الصفحة ٣٧٣

انظر الى المستنبطات التي حققت في الخمسين السنة الاخيرة : التلفون — المصباح الكهربائي المولدات والمحركات الكهربائية — الاتوموبيل — الخامات الاصطناعية على اختلافها — السفن التي تحرق البترول — الحرير الصناعي — الآلات التي تبيع كالاحياء — هذه هي بعض المستنبطات التي قذف بها العلماء والمستنبطون والصناع الى ميادين الحياة اليومية

وقد اتقنت الوسائل الميكانيكية المختلفة اتقاناً جعلها كأنها مستنبطات جديدة . فقد نشر اتحاد العمال في اميركا نشرة اقتصادية يؤخذ منها ان مقدرة العمل على الانتاج زادت من اول القرن العشرين الى الآن خمسين في المائة وان هذه الزيادة سببها اتقان الوسائل الصناعية الميكانيكية

ومما يؤسف له وقد يكون له اثر شديد الخطر في العمران ان كثيراً من البلدان زادت قوة معاملها ومصانعها زيادة كبيرة لا تسوغها حالة الاسواق المالية ولذلك نرى ان جانباً كبيراً من هذه المعامل واقف عن العمل لا يبدي حراكاً . ففي ١٧ سنة (١٩٠٧ — ١٩٢٤) زادت القوة المستعملة في مناجم بريطانيا ومعاملها من ٨ ملايين حصان الى ١٥ مليوناً ولكن ما تنتجهُ هذه المناجم والمعامل لم يزد قط . وهذا يعود بنا الى ما قدمنا الكلام عليه وهو اذا لم تنتظم بلدان العالم انتظاماً يمكنها من استهلاك ما تنتجهُ المعامل التي تكثر وتزداد انتاجها كلَّ سنة باتقان اساليب العلم ووسائل الصناعة لم يجدِ هذا التقدم العلمي الصناعي نفعاً ما

فالنتيجة العامة التي نصل اليها بعد البحث المتقدم هي هذه . ان التقدم العلمي والصناعي سريع لا تستطيع بلدان الارض ان تجاريهُ بزيادة مقدرتها على الاستهلاك والتكيف على ما تقتضيه الاحوال الصناعية الجديدة . وانهُ اذا استمرَّ كذلك وقف كثير من المصانع عن العمل ورتعت لا محالة أزمة خطيرة جداً بزيادة البطالين العاطلين

ولو كان في الامكان لكان يحسن بنا أن نقف عقداً او عقدين من الزمان عن الاكتشاف والاستنباط لنعي في اثناء ذلك بتنظيم ما انتقاه حتى الآن ومحاولة الوصول الى نقطة التوازن بين الانتاج والاستهلاك . بذلك فقط نتمكن من توزيع المنافع التي تنجم عن ارتقاء العلم وزيادة سيطرته على اساليب الصناعة . وما لم نفعل ذلك بطريقة من الطرق لا بدَّ ان نضيق يوماً فنرى الصناعة في ركود وجماهير العمال العاطلين في فقر مدقع فاذا حصل ذلك صعب على نظام العالم المالي تحمل هذا العبء ان لم يتعذر عليه ذلك وحينئذ ينحني تحتهُ ويتهار

ما اغرب النتيجة التي وصلنا اليها — كلما زادت مقدرتنا على الانتاج زادت المصاعب في الاستفادة منها وتوزيع المنتج على جميع طبقات الناس توزيعاً عادلاً ! لقد صدق قول الشاعر « مجيء المعرفة سريع ولكن مجيء الحكمة بطيء »